

الاتجاهات الحديثة في تفسير التنمية والتخلف

المحاضرة الخامسة: نظرية التحديث، اتجاه الأنماط والمؤشرات، والاتجاه التطوري المحدث

1. نظرية التحديث

بعد الحرب العالمية الثانية ازدهرت فرضية أن "التقدم" عملية خطية يمكن دراستها وقياسها وتحفيزها عبر سياسات انتقالية، التصنيع، التحضر، التعليم، تبني التقنيات. هذه الرؤية افترضت وجود «مراحل» تنموية عالمية يمكن للبلدان المتخلفة أن تمر بها باتباع نموذج البلدان الغربية.

1.1. الخلفيات الفكرية والتمركز حول الغرب

استمدت نظرية التحديث أساسها السوسيولوجي من أعمال تالكوت بارسونز (Talcott Parsons)، خاصة نظريته العامة للفعل، ومنظوراته التطورية والمقارنة للمجتمعات. فقد قدم بارسونز مخططاً مفاهيمياً لتحليل الأفعال داخل الأنظمة الاجتماعية. من رواد هذه النظرية علاوة على بارسونز نجد دبليو روستو من خلال أطروحته حول مراحل النمو الاقتصادي.

تطورت نظرية التحديث بعد الحرب العالمية الثانية، في الخمسينيات والستينيات في سياق الحرب الباردة، ظهرت نظرية التحديث مع رغبة الغرب في تعميم نموذج التنمية الرأسمالي على دول العالم الثالث. حيث تفترض أن المجتمعات يمكن أن تحقق التنمية من خلال محاكاة النماذج الغربية. في الخمسينيات، بدأت مدرسة التحديث في الولايات المتحدة في الظهور، والتي تتطلع إلى دخول العالم الثالث إلى العالم الحديث، والغربي. استندت إلى الفكر التطوري الذي يرى المجتمعات تمر بمراحل متتابعة من "التقليدية" إلى "الحداثة" (Zidana, 2023; Uwazie et al., 2015; Merwe & Dodd, 2019).

وفقاً لـ So (1991: 17-23)، "فإن ثلاثة عناصر أو أحداث تاريخية رئيسة أدت إلى ظهور مدرسة الفكر التحديثي:

- صعود الولايات المتحدة كقوة عظمى؛ وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية التي استخدمت خلالها القنابل الذرية لإجبار اليابان على الاستسلام وبالتالي إنهاء الحرب؛
- صعود روسيا الشيوعية وانتشار الشيوعية، وخاصة في أوروبا الشرقية والصين وشبه الجزيرة الكورية؛
- تفكك الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية". (Cited in Adebisi,) (2016, p180)

من الناحية المعرفية:

- الفكر التطوري الكلاسيكي: استمدت النظرية جذورها من أفكار رواد علم الاجتماع الأوائل مثل أوجست كونت وهربرت سبنسر وإميل دوركايم، الذين رأوا أن المجتمعات تتطور من أشكال بسيطة وتقليدية إلى أشكال أكثر تعقيداً وحدثة.

- السياق التاريخي للحرب الباردة: ظهرت النظرية كجزء من الصراع الأيديولوجي، حيث قدمت نموذجاً تنموياً رأسمالياً بديلاً عن النموذج الاشتراكي الذي كان يكتسب شعبية في بعض الدول حديثة الاستقلال.

2.1. المنظور النظري نحو التنمية والتخلف:

تفترض نظرية التحديث أن المجتمعات يمكن أن تحقق التنمية من خلال محاكاة النماذج الغربية. تتطلع هذه المدرسة إلى دخول العالم الثالث إلى العالم الحديث، والغربي. "سعت نظرية التحديث إلى تحديد الظروف التي أدت إلى التنمية في العالم الأول، ولم كانت هذه التنمية ناقصة في العالم الثالث". (Rapley, 2007, p 24) ركزت هذه النظرية على مفاهيم مثل: التحديث، التقليدية، الإقلاع، التقدم، العقلنة (Zidana, 2023; Uwazie et al., 2015; Merwe & Dodd, 2019). تعد "نظرية التحديث، التصور المؤثر في علم الاجتماع التنمية، فهي قائمة على مركزية أوروبية مفرطة من حيث تصورها للسيادة المطلقة للعقلانية الغربية والمؤسسات الغربية. فجوهر نظرية التحديث يقول: إذا أردت أن تتطور، فكن مثلاً (الغرب)". (Peet & Hartwick, 2009, p104)

في الواقع، "برزت نظريات التحديث التي تسعى إلى تفسير عملية التنمية على أنها انتقال بين نموذجين أو نمطين مثاليين، المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث أو الصناعي. خلال عملية الانتقال، تحدث تغيرات غير متزامنة في قطاعات وهياكل مجتمعية مختلفة، وبالتالي يتوقع وجود مزيج من المؤسسات والقيم التقليدية والحديثة، وهو ما يميز المجتمع النامي أو المحدث. تتجزأ الدول المتقدمة هذا الانتقال أولاً، ومن المفترض أن تتبع الدول النامية الجديدة نفس نمط التغيير. لذا، تسعى نظريات التحديث إلى تحديد المجالات والمتغيرات الاجتماعية التي ينبغي أن تشهد بعض التغيرات المحددة لتسهيل عملية انتقال المتأخرين". (LARRAIN, 1989, p11)

ترى نظرية التحديث أن التنمية عملية خطية وتطورية تمر بها جميع المجتمعات عبر مراحل محددة، هدفها النهائي هو الوصول إلى نموذج المجتمع الغربي الصناعي الرأسمالي. يعتقد ولبرت مور (W Moore) أن مفهوم التحديث يشير إلى ذلك التحول الشامل للمجتمع التقليدي والانتقال إلى أنماط التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعي الذي يميز الاقتصاديات المتطورة". (نقلاً عن قيرة وغربي، 2017، ص 4) لذلك، انصب

اهتمامها على الإجابة عن السؤال التالي: كيف تنتقل المجتمعات من التقليدية إلى الحديثة؟ على سبيل المثال كيفية الانتقال من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي.

- في شقها الاقتصادي رفضت نظرية التحديث اختزال التنمية في النمو الاقتصادي، وإذا أرادت الدول التي أصبحت تسمى "متخلفة" تحقيق التنمية، فيجب أن يتم في إطار اتباع المسار ذاته الذي اتبعه الغرب المتقدم، وهذا لا يتم إلا من خلال التخلص من الثقافة والتقاليد السائدة، حيث "كان ينظر إليها كعقبات في طريق النمو الاقتصادي، وبالتالي فإن تحقيق التنمية في البلاد المتخلفة، تعد مسألة وقت فحسب". (جلال أمين، 2002، ص 35-36) يرى بارسونز أن التحديث هو تحول المجتمع من سمات تقليدية (مثل: الانتساب، والخصوصية، والتوجه نحو الجماعة) إلى سمات حديثة (مثل: الإنجاز، والعمومية، والتوجه نحو الذات).

- التصنيع كطريق رئيس للتنمية. في أوائل الستينيات، "كان ينظر إلى التنمية إلى حد كبير على أنها مرادفة للتصنيع، وكان هدفها النهائي واضحاً إلى حد ما، رفع الدخل وفي نفس الوقت إتاحة وصول الفقراء إلى مجموعة السلع والخدمات المنتشرة آنذاك في المجتمعات المتقدمة. باختصار، كانت القضية هي تحقيق الغنى أو الازدهار؛ وكان يتم قياس الازدهار بأرقام الدولار". (Rapley, 2007, p1) "إن المحور الرئيس للحجة أو الاقتراح النظري لمدرسة الفكر التحديثي هو أن بعض البلدان متخلفة بسبب العمليات الاجتماعية والنفسية التي تحدد التنشئة الاجتماعية والشخصية والتنمية. ومن أجل التطور، يجب على دول العالم الثالث أن تتخلص حرفياً من التنشئة الاجتماعية السلبية والممارسات الثقافية الأخرى، وتبنى النموذج الغربي للتنمية". (Cited in Adebisi, 2016, p180)

لا تنمية دون تحديث ولا تحديث دون تصنيع

استخدمت "المتغيرات النمطية" (Pattern Variables) البارسونزية كأداة تصنيفية لتحديد الفروق بين المجتمعات التقليدية والحديثة. هذه المتغيرات (مثل الانتقال من الشمولية إلى التخصصية) توفر وسيلة لوصف المؤسسات والعلاقات الاجتماعية على أساس مجموعة من "الاختيارات الثنائية" (dichotomous choices). كالتحول من إلى:

- من الثقافة التقليدية إلى الثقافة الحديثة، كالتحول من القيم القائمة على الأساطير والخرافة والأخلاق، إلى قيم قائمة على العقلنة.

- من المؤسسات التقليدية القائمة على القرابة إلى مؤسسات حديثة قائمة على العقلانية والإنتاجية والبيروقراطية.

- من الريف ونمط الإنتاج الزراعي إلى المدينة ونمط الإنتاج الصناعي.

رسخ هذا الإطار الابستمولوجي مركزية النموذج الغربي كـ "نهاية" للتطور، مما حول التنمية إلى عملية محاكاة للغرب بدلاً من أن تكون عملية بناء ذاتي. وفقاً لجلال أمين "التنمية كان لا بد لها أن تعطي تعريفاً يتضمن، ليس فقط زيادة متوسط الدخل، بل وأيضاً أن تصبح الدولة المطلوب تنميتها "شبيهة بالغرب". (جلال أمين، 2002، ص 26-27)

جادل قولفجانج ساكس هذا الطرح، حيث "حطم المأزق الايكولوجي النظرة التفوقية للغرب، فلو اتبعت الدول كافة النموذج الصناعي بنجاح، أو ما أسميه **"الفردوس الصناعي"** الموعود، فسوف تكون هناك حاجة على خمسة أو ستة كواكب لتكون مناجم ومكب نفايات، وبذلك يكون من الواضح أن المجتمعات المتقدمة ليست نموذجاً، بل هي انحراف عن مسار التاريخ". (ساكس، 2008، ص 9)

- التخلف وفق هذه المقاربة هو حالة داخلية وأصلية في المجتمعات "التقليدية"، ناتجة عن عوائق ثقافية ومؤسسية وقيمية تمنعها من التقدم. تخلف العالم الثالث وفق هذه الرؤية هو مجرد "مرحلة متأخرة" على هذا السلم التطوري الذي سبقت إليه الدول الغربية. تفترض النظرية أن الدول النامية يمكنها تحقيق التنمية عبر تبني القيم والمؤسسات والتكنولوجيا الغربية. لذلك، يفسر التخلف كمرحلة سابقة للتنمية، سببه الجمود الثقافي أو ضعف البنية المؤسسية.

للتخلص من هذه الحالة المجتمعية لا بد للمجتمعات الأخرى أن تركز على دور التعليم، التصنيع، التحضر، والمؤسسات الحديثة في التنمية. "اتفق منظرو التحديث على نقطة مهمة واحدة: كان التخلف حالة أولية. وأن الغرب قد تقدموا إلى ما هو أبعد منه، ولكن دول أخرى تأخرت. ومع ذلك، يمكن للغرب أن يساعد في تسريع عملية التنمية في العالم الثالث، على سبيل المثال بمشاركة رأسماله ومعرفته، لجذب هذه الدول إلى العصر الحديث للرأسمالية والديمقراطية الليبرالية". (Rapley, 2007, p 24)

3.1. الانتقادات الموجهة لنظرية التحديث:

- لقد كانت نظرية التحديث مثلاً نموذجياً للهيمنة المعرفية (Epistemological Hegemony)، حيث تم تقديم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للغرب على أنه علم اجتماعي عالمي ينطبق على كل المجتمعات. إن فشل هذا الإطار في تفسير تعقيدات التغير الهيكلي، وتحويل المشاكل التنموية المعقدة إلى مجرد

مجموعة من الخيارات الثنائية أو عوائق ثقافية داخلية، مع تجاهل الترتيبات التاريخية للاستغلال، أدى إلى تآكل مصداقية التحديث في مواجهة الحقائق الميدانية، خاصة في أمريكا اللاتينية.

- واجه هذا النموذج نقدًا إبستمولوجيًا حادًا من منظورات ما بعد الاستعمار والتبعية والعالمية، التي شككت في مركزية الغرب وادعاءات الموضوعية والحياد في دراسات التنمية. كما أشار كبار النقاد مثل أرتورو إسكوبار (Escobar, A. 1995) إلى أن "التنمية" هي بناء خطابي (Discursive Formation) وليست واقعًا محايدًا. يجادل النقاد بأنها تعزز التبعية وتتجاهل السياقات المحلية، مما يؤدي إلى نتائج تنموية غير متكافئة.

- التمرکز الغربي (Eurocentrism): فرض النموذج الغربي كمعيار عالمي. انتقدت النظرية بشدة لافتراضها أن النموذج الغربي هو المسار الوحيد والأمثل للتنمية، متجاهلةً بذلك خصوصيات السياقات التاريخية والثقافية للمجتمعات الأخرى. جادل الجغرافي ديفيد سلاتر (1992، 1993) بأن مفهومة التنمية تم "تأطيرها" بالمخيلة الجيوسياسية للغرب. كانت نظرية التحديث انعكاسًا لإرادة القوة المكانية، "سعت إلى إخضاع، واحتواء، واستيعاب العالم الثالث كآخر" (Slater 1993, p 421).

- تجاهل العوامل الخارجية: ركزت النظرية على العوائق الداخلية وأهملت بشكل كبير دور العوامل الخارجية مثل الاستعمار، والهيمنة الاقتصادية، وعدم تكافؤ العلاقات التجارية في إعاقه تنمية دول الجنوب (وهو ما ركزت عليه لاحقًا نظرية التبعية). علاوة على إهمال التفاوتات البنيوية العالمية (Zidana, 2023; Uwazie et al., 2015; Merwe & Dodd, 2019).

- التبسيط الخطي للتاريخ: فكرة أن جميع المجتمعات يجب أن تتبع نفس المسار الخطي ثبت عدم صحتها، حيث أظهرت تجارب دول مثل الصين وكوريا الجنوبية أن هناك مسارات متعددة ومختلفة للتنمية.

- دعوتها إلى تدمير الثقافات التقليدية: تعاملت النظرية مع الثقافات التقليدية كعقبات يجب التغلب عليها، بدلاً من كونها موارد يمكن أن تساهم في التنمية.

2. اتجاه الأنماط المثالية للمؤشرات:

يعد هذا الاتجاه من التيارات البنيوية الوظيفية التي سادت في خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وارتبط بشكل كبير بنظريات التحديث. اهتم هذا الاتجاه انطلاقًا من نظرية التحديث بالمؤشرات الكمية والكيفية، من بين رواد هذا الاتجاه نجد كل من ليبست (Libset) وهوسيلتز (Hoselitz) وجالتونج (Galtung)،

1.2. المنظور النظري نحو التنمية

يركز هذا الاتجاه على فكرة رئيسية: التنمية هي عملية تحول مجتمعي شاملة من "نمط اجتماعي تقليدي" إلى "نمط اجتماعي حديث". لا يعتبر التنمية مجرد نمو اقتصادي، بل هي تحول في القيم، والاتجاهات، والهياكل الاجتماعية، والمؤسسات. ولقياس هذا التحول، يتم صياغة "أنماط مثالية" (Ideal Types) - وهي نماذج مجردة تسلط الضوء على أبرز خصائص المجتمع التقليدي والمجتمع الحديث - ويتم تحديد مؤشرات كمية ونوعية لتتبع التقدم على هذا المسار.

يقوم هذا الاتجاه على الأسس التالية:

- "تحديد السمات والخصائص الأساسية للمجتمع الغربية باعتبارها نماذج مثالية.
- تحديد السمات والخصائص الأساسية المقابلة لها في مجتمعات البلدان النامية.
- تصنيف هذه الخصائص وترتيبها تبعا لنموذجين يحتوي كل منهما على عدد من المؤشرات الكمية والكيفية (نموذج للتقدم وآخر للتخلف).
- صيغة نموذج يعبر عن تحول المجتمع من حالة التخلف إلى حالة التقدم". (قيرة وغربي، 2017، ص 8)

2.2. كيف تتحقق التنمية وفق هذا المنظور؟

تتحقق التنمية وفق هذا المنظور من خلال عملية "التحديث". في الواقع، اهتم هذا الاتجاه بالمؤشرات الكمية (متوسط الدخل الفردي، مستوى التعليم لنشر الفكر العقلاني والعلمي، التحضر من خلال الانتقال من الريف إلى المدينة، إنشاء مؤسسات عقلانية وبيروقراطية، تقسيم العمل وزيادة التخصص في الوظائف والمهن. تطوير البنى التحتية..)، ثم تحول بعد ذلك نحو مناقشة المؤشرات الكيفية، حيث بين هوستيلز أن "التحديث هو مجرد عملية اكتساب (أو فقدان) خصائص أو سمات معينة يعتقد أنها خصائص التنمية أو التخلف". (نقلا عن قيرة وغربي، 2017، ص 9)

عملية تحول ثنائي القطب: التنمية هي رحلة حتمية إلى حد ما، ينتقل فيها المجتمع من قطب "التقليد" إلى قطب "الحداثة". يُفهم التقليد والحداثة كنمطين متعارضين تماما. تتضمن أيضا تحول شامل ومتعدد الأبعاد: التغيير لا يقتصر على البعد الاقتصادي، بل يشمل مناحي الحياة الأخرى:

- القيمي والثقافي: الانتقال من القيم المتعلقة بالقدّر والعائلة والطاعة إلى قيم العقلانية، والفرديانية، والاستقلال، والإنجاز.

- البناء الاجتماعي: الانتقال من البنيات القائمة على القرابة والعشيرة إلى بنيات قائمة على الكفاءة والمهنية
- الاقتصادي: الانتقال من الزراعة التقليدية إلى الاقتصاد الصناعي القائم على التكنولوجيا وتقسيم العمل.

فيما يلي نشير إلى جدول التنمية عند هوستيلز:

البلدان المتقدمة (1)	البلدان النامية (2)	التنمية أو (التحديث)
- العمومية	- الخصوصية	التنمية هي اكتساب واستيعاب
- الإنجاز	- العزو	المجتمعات النامية لمتغيرات (1)
- تخصص الدور	- تشتت الدور	والتخلي على متغيرات النمط (2)

المصدر: (قيرة وغربي، 2017، ص 9)

3.2. الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه

- نزعة مركزية (Ethnocentric) صارخة يفترض النموذج أن طريق الغرب هو الطريق الوحيد والأمثل للتنمية، ويتجاهل خصوصية ومسار التطور التاريخي والثقافي للمجتمعات غير الغربية. فهو يصور تاريخ العالم كقصة واحدة ذات نهاية محددة مسبقاً.
- تبسيطية وثنائية مفرطة: تقسيم العالم إلى "تقليدي" و"حديث" هو تقسيم مبسط وغير دقيق. فالمجتمعات "التقليدية" تحتوي على عناصر عقلانية، والمجتمعات "الحديثة" مليئة بالعناصر التقليدية. العلاقة بينهما أكثر تعقيداً من مجرد استبدال أحدهما بالآخر.
- نظرة وظيفية وتوافقية (Harmonious): يتصور عملية التحديث على أنها عملية سلمية وتوافقية، بينما في الواقع كانت مصحوبة دائماً بالعنف، والصراعات الطبقيّة، والاستغلال، والاستبداد السياسي.
- إهمال التبعية والتأثير الخارجي: يفترض أن كل مجتمع يتطور بمعزل عن الآخرين، في حين أن نظريات التبعية (مدرسة فرانكفورت، سمير أمين) أظهرت أن "تخلف" الجنوب كان شرطاً ضرورياً لـ"تطور" الشمال.
- يمثل اتجاه الأنماط المثالية للمؤشرات مرحلة تأسيسية مهمة في فكر التنمية، حيث وسع مفهومها ليشمل الأبعاد الاجتماعية والثقافية. ومع ذلك، فإن انتقاداته الكبيرة جعلت منه نظرية "تاريخية" إلى حد كبير في الأوساط الأكاديمية النقدية. ساهمت هذه الانتقادات في ظهور نظريات أكثر جدلية وتفسيراً للواقع، مثل نظريات التبعية ونظرية النظام العالمي، التي ركزت على العلاقات غير المتكافئة بين المركز (الدول المتقدمة) والأطراف (دول العالم الثالث) كعامل مركزي في تفسير ظاهرة التخلف والتنمية.

3. الاتجاه التطوري المحدث:

1.3. المنظور النظري نحو التنمية

ينظر هذا الاتجاه إلى التنمية بوصفها مسار خطي عالمي: يفترض أن جميع المجتمعات ستسلك نفس المسار العام الذي سلكته المجتمعات الغربية المتقدمة. بمعنى آخر، "نمط" التطور الغربي هو النموذج الذي يجب أن تحتذي به جميع الأمم.

التنمية عملية خطية وتراكمية تمر بمراحل: مراحل النمو الاقتصادي (والت روستو): يعد نموذج روستو من أشهر نماذج التحديث، حيث قسم التطور إلى خمس مراحل حتمية: (1) المجتمع التقليدي، (2) تهيئة ظروف الانطلاق، (3) الانطلاق (Take-off)، (4) السير نحو النضج، (5) عصر الاستهلاك الوفير.

"تطور المجتمعات وفقاً للاقتصاد الأمريكي دبليو والت روستو:

1- المجتمع التقليدي

2- المجتمع الانتقالي

3- مرحلة الانطلاق

4- مرحلة النضج

5- مرحلة الاستهلاك الوفير (الجماهيري)" (قيرة وغربي، 2017، ص 14)

"تركز بعض النظريات على العوامل الاقتصادية. فعلى سبيل المثال، يصف روستو مراحل اقتصادية مختلفة تتطلب مجالات ومعدلات استثمار حاسمة معينة للانتقال إلى المرحلة التالية. بينما تشدد نسخ أخرى على الدوافع النفسية. فعلى سبيل المثال، يجادل ماكلياند McClelland بأن النمو الاقتصادي يتطلب تنمية دافع النجاح لدى فئة من رواد الأعمال، وهو ما يسمى "الحاجة إلى الإنجاز". (LARRAIN, 1989, p11)

يتشارك هذا الاتجاه مع نظرية التحديث وباقي "النظريات التي ركزت على القول بوجود مراحل متتابعة للنمو الاقتصادي، والاعتقاد بأن المسار الوحيد الممكن لتحقيق التنمية لا يكون إلا من خلال تحقيق النقلة النوعية بين مرحلة وأخرى. هذه الرؤية تصور التنمية على أنها مسار خطي تصاعدي يبدأ من نقطة محددة وينتهي في نقطة أخرى، على الدول والمجتمعات السير فيه، إن كانت تروم فعلاً تحقيق نهضتها التنموية". (وظقة، 2019، ص 14)

وعليه، غالبًا ما تكون هذه النظريات غائية، وتتخذ من المجتمعات الغربية الرأسمالية المتقدمة نموذجًا لجميع الدول النامية. من المحتم أن تسلك الدول الجديدة نفس الطريق، وأن تتوقع مواجهة نفس المشاكل التي واجهتها المجتمعات الغربية في القرن التاسع عشر. ويعد انتشار القيم والتوجهات والمؤسسات الاقتصادية الرأسمالية أمرًا لا غنى عنه للتنمية، ولذلك، ينبغي تعزيز التواصل الوثيق مع المجتمعات الغربية، وخاصةً من خلال التجارة الدولية غير المقيدة". (LARRAIN, 1989, p11)

2.3. الانتقادات الموجهة لهذا الاتجاه

تعرض هذا التحديد المرحلي الذي قدمه الاقتصادي الأمريكي إلى جملة من الانتقادات نوجزها فيما يلي:

- افتقاده للصدق الإمبريقي والكفاءة النظرية.
- عدم مراعاة الاختلافات البنيوية بين المجتمعات في محاولته لوضع قانون عام للنمو الاقتصادي ينطبق على الجميع.
- إهماله لأبعاد التغيير والصراع، وتركيزه على المعالجة الوظيفية التي تدعم الأيديولوجية الرأسمالية المحافظة. (قيرة وغربي، 2017، ص 14)